المحاضرة رقم:05

مذهب اسبينوزا العقلاني:

1- منهجه الفلسفي:

إن المتتبع لفلسفة "اسبينوزا" يجد أن جلّ أفكاره نابعة من طبيعة الظروف الثقافية والسياسية التي واجهها في محيطه الاجتماعي والديني القاسي، هذه المعاناة قادته إلى متابعة أبحاثه الفلسفية واستئناف المساءلات الفكرية حول القضايا الأخلاقية والسياسية بمنظور عقلي خالص، هذا الوضع دفعه إلى الحديث عن الارادة والخير والحرية، وهي مسائل قد شغلت الفكر الفلسفي في العصر الحديث بسبب توسع المساجلات الفكرية حول محتواها ودلالاتها وتأثيرها المباشر على مستوى حياة الفرد والمجتمع على حد سواء.

من هذا الباب فإن المداخل الاشكالية التي يواجهها"اسبينوزا"، هو أن يبدأ في عملية التنقيب عن مسلك عقلي يتيح له فرص اعادة النشاط الفلسفي إلى وظيفته العقلية، المتمثل في الكشف عن الحقائق التي تحمل مواصفات الوضوح والتميز، مبعدا عن الاهتمام العقلي كل أشكال العناية بمباهج الحياة التي تنشدها النفس، لذلك شغلته فكرة البحث عن الخير الذي أصبح مطلبه الأساسي، لكونه يحقق الطمأنينة الدائمة والرضى النفسي الثابت، ويكمن هذا الخير الحقيقي في كل ما يؤثر في العقل ويستبعد كل ما هو غير ذلك، مقتفياً أثر الكشف عن الطريقة المؤدية إلى السعادة التي لا نهاية لها، " وكيف أنه إذا ما اكتشف هذه المتعة الدائمة التي نجدها في السعادة عن العقل فإنه سيمكن له مساعدة الآخرين في أن يكون لديهم هذا الادراك أو الهم المؤدي إلى تحقيق السعادة الدائمة"[1] .

لقد أكد "اسبينوزا" أن تحقيق الخير الدائم، يقتضي توفر الحرية وممارستها في مختلف أفعالنا مما يعطي هذا البعد وضعاً ملائماً للفرد كي يستخدم مختلف قواه العقلية بنفسه، مبعداً في ذات الوقت كل تدخل يأتي من سلطة خارجية تلزمه بذلك، لذلك أدرك "اسبينوزا" من خلال معتقداته الدينية أن الله جوهر لا متناه أزلي، وحينما تحول إلى المسيحية أعتقد أن الله ينبغي أن يكون موجوداً خاضعاً إلى الضرورة المنطقية والقانون العلمي، وأن يكون هذا الإله متفقاً في صفاته مع المعرفة العلمية الحديثة.

[1] –محمد علي أبو ريان: تاريخ الفكر الفلسفي، ج4، دار المعرفة ، القاهرة مصر، 1996، ص 100.

إن " اسبينوزا" بحكم انتمائه الفلسفي العقلاني، كان شغوفاً بالبحث عن الحقيقة التي تنسجم كثيرا مع خاصية الوضوح، "لأن من لديه فكرة حقيقية يعرف في نفس الوقت أن لديه فكرة حقيقية ولا يمكن أن يشك في حقيقة معرفته.إذ أنه لا أحد تكون لديه فكرة حقيقية ويجهل أن الفكرة الحقيقية تضم أعلى درجة من الحقيقة ؛ فأن تكون لدى المرء فكرة حقيقية، فعلاً، فإن ذلك لا يعني إلا أنه يعرف شيئا من الأشياء معرفة تامة أو بأحسن قدر ممكن [1]" .

2- أنواع المعرفة عند اسبينوزا:

بما أن "اسبينوزا" يركز كثيراً في البحث عن المعرفة، فإن هذا الانشغال قاده إلى التمييز بين ثلاثة أنواع من المعرفة، وهي : الظن أو المعرفة السماعية ثم المعرفة العقلية الاستدلالية ثم المعرفة الحدسية.

أ- المعرفة الظنية وتتمثل في مختلفالادراكات الحسية التي نقابلها في التجربة، وهي بهذه الصورة تفتقر إلى مواصفات الدقة العلمية، ذلك لأنها بمقتصى طبيعتها، تكون جزئية غامضة، ومنها ما يرد إلينا من معارف عن السمع والتقليد وذكريات متعلقة بتجارب الماضي التي لم يتدخل العقل في فهمها وتصنيفها، وعلى هذا النحو تكون هذه المعرفة غير مطابقة مع طبيعة نشاط العقل، وبالتالي فقدت دقتها. فقد يحدث أنه عندما نقرأ أو نسمع الفاظاً أو رموزاً معينة أشياء مرتبطة بها، ولكن هذا التذكر قد يحصل بدرجات متفاوتة، وحينها تكون عرضة لأوصاف الغموض والاضطراب، وعندما نمضي في تشكيل أفكار حولها، فإننا لا نتحرى فيها الصدق والدقة المعرفية المنشودة.

على هذا الأساس اعتقد "اسبينوزا" أن جميع المدركات الحسية التي تقابلنا في الواقع الحسي تصنف ضمن دائرة المعرفة الظنية، لأنها تثير فينا صورا تقوم في أساسها على فكرة تداعي المعاني والذكريات والألفاظ والرموز، وهناك من صور ما يتوارد إلى مخيلتنا تحت تاثير العادات والتقاليد، لذلك إقتنع "اسبينوزا" أن هذا الصنف من المعرفة لا يمكن الوثوق فيه، لأن من طبيعتها ناقصة ومعرضة للخطأ.

ب- إذا كانت المعرفة الظنية تثير كثيراً من الشكوك والارتياب في نفوسنا، فإننا نجد على العكس من ذلك، أن المعرفة العقلية معرفة ترقى إلى الوضح والصدق، بدليل أن الناس جميعاً بإمكانهم الاتفاق على صحة مجموعة من الأفكار من حيث أن العقول والأجسام لها خصائص أو تشترك في مجموعة من الخصائص تمكننا من الحصول على أفكار مطابقة لها وعن استخلاص عللها او متابعة آثارها،

[1]-Spinoza : Ethique, édition Flammarion, Paris, p. 117.

لذلك أصبح الطريق الأمثل الذي يجب البرهنة به على القضايا عن طريق استخدام مناهج هندسية انطلاقاً من مقدمات وصولاً إلى النتائج، فهذه المعرفة من حيث طبيعتها تمثل المعرفة العقلية.

ج-أما النوع الثالث من المعرفة، فهو المعرفة الحدسية، ويعرفه "اسبينوزا" في كتاب الأخلاق فإنه يتمثل في المعرفة التي ننتقل فيها من أفكار مطابقة عن ماهية مطابقة لصفات معينة لبعض صفات الله، ونحن نجد أن كل لفظ في هذا التعريف له مدلول اصطلاحي عند "اسبينوزا" ومدلول هذا التعريف العام أنه إذا كنا نتقدم في معرفة أي شيء بعمق، فإننا سنفهم حقيقته من خلال طبيعته النهائية وضرورته التي يخضع لها على أساس أنها وجه للألوهية، ذلك أن عقولنا بقدر ادراكها لحقيقة الأشياء ترى أنها جزء من العقل اللامتناهي لله، وبذلك فإن أفكارنا الجلية الواضحة تكون صادقة بالضرورة وفي مستوى صدق أفكارنا عن الله." إن الأشياء الواصحة فوق كل الأشياء لا تُعرف نفسها بنفسها فقط، إنها تعرف أيضا بالكذب بحيث يكون من الحماقة أن نسأل: كيف يمكننا أن نعيها ؟ ولأنها واضحة فوق كل الأشياء، فإنه لا يوجد وضوح آخر يمكن أن يجعلها أوضح. [...] وأن الكذب لا يعرف و لا يبرهن على نفسه بنفسه. فمن يملك الحقيقة إذن، لا يمكنه أن يشك في ذلك ؛ أما الغائص في الكذب أو الخطأ في مقابل ذلك، فبإمكانه التصور بأنه في الحقيقة، شأنه شأن من يحلم مع ظنه بأنه ساهر، لا شأن من يسهر مع ظنه بأنه دائماً يحلم. وعلى ضوء ما قيل، ينكشف أيضاً وإلى حدّ ما، ما كنّا نقوله: وهو أن الله هو الحقيقة هي الله نفسه"[1] ، وهذا ما ينجم عن حضور التصور الديني في مسار "اسبينوزا" الفكري.

من خلال عرض هذه المراحل حول تشكل هذه المعارف الثلاثة كل حسب طبيعتها، فإن " اسبينوز " يؤكد بوجود تداخل بين بعضها مع البعض الآخر.

3- الحرية الانسانية:

تحتل مشكلة الحرية الانسانية مكانة مركزية في النسق الفلسفي لـ"اسبينوزا" في صلتها بالأفعال الأخلاقية وبمسألة الخير والشر، لذا تجده يرفض التمييز بين النفس وقواها وبين الارادة والعقل، بل يرجع الارادة إلى العقل، فهي تعبر عن ميل العقل إلى قبول ما يرضي عنه من معاني واستبعاد ما لا

[1]- Spinoza :œuvres, Court traité, édition, Garnier Flammarion, Paris, 1964, p. 15.

يروقه منها، إذ الفعل الارادي لا يتسـم بالحرية التامة، وأن مجرد فكرة تثبت أو تنفي نفسـها من أن جميع الأشياء متضمنة في الطبيعة الالهية التي تتسم بضرورة الوجود والفعل، فلا يوجد في الطبيعة أي أمر حادث أو ممكن، بل كل ما هو موجود في الطبيعة انما يرتبط بعلل معينة إلى غير نهاية .

فالنفس الانسـانية ترتبط بأفعال معينة، لكن ليس لها إرادة حرة، والشـعور بالحرية وهم ينتج عن عدم مطابقة العقل لموضوعاته بسبب ما يعتريه من نقص وغموض ويصبح الشعور بالحرية وهماً. أما اعتقاد الناس بأنهم أحرار، إنما يعود إلى جهلهم وعدم معرفة الأسـباب التي تقودهم إلى ذلك، ويمكن تشبيه هذه الأفعال بالحجر الذي يسقط من أعلى، فهو لا يملك إرادة حرة لكي يسقط أو يمتنع عن السقوط، كذلك يكون الشأن في خضوع السلوكات الإنسانية إلى مجموعة من الانفعالات، " بيد أن انفعالات الفرح والحزن ترتبط بدرجة تأثرنا بالعالم وتأثيرنا فيه، ولكن أوجه انفعالنا تفوق في معظم الأحيان أوجه الفعل عندنا، كما أنّنا ننسب إلى ارادتنا إلى ما ينتسب في الواقع إلى سلسلة لا محدودة من العلل الضروريةن وهي سلسلة مرتبطة بعدد لا محدود من السلاسل اللامحدودة الأخرى التي تكوّن معاً الوجه الكلّي للكون وهو الله أو الطبيعة"[1]

هذا النقاش يفضي حسب "اسبينوزا" إلى التمييز بين نوعين من المعرفة، هما المعرفة الحسية والمعرفة العقلية، وفي النوع الأول من المعرفة أي المعرفة الحسـية نجد خلالها أن الأفكار التي تحصـلنا عليها غير مطابقة، لأنها تقتصر على الحواس والمخيلة فحسب، وتكون أحكامنا الخلقية في هذه المرحلة خاضعة لشعورنا بأن ذواتنا قائمة بنفسها وأن ما يحيط بنا من أشياء، إنما يخضع لرغباتنا فيه أو لكراهيتنا لها، وليس للحكم بأنها خير أو شر، وعلى هذا فنحن نكون بهذه الصورة مستعبدين لشهواتنا، يقول: "اسبينوزا":" إذ أن أكثر الأحداث تواترا في حياة الناس تلك التي ينظرون إليها، مثلما يستخلص من أعمالهم كلها، على أنها الخير الأعظم، إنّما هي تنحصـر في ثلاثة: الثراء والمجد واللّذة الحسـية، وهي تشغل الفكر عن التركيز على أيّ خير آخر؛ فالنفس تتعلق اللّذة كما لو كانت قد وجدت الخير الذي ترتاح إليه، فتكون عاجزة إلى أقصى حدّ عن التفكير في خير آخر"[1] .

---

[1] – سبينوزا: رسالة في اصلاح العقل، ترجمة جلال الدّين سعيد، دار الجنوب للنشر، تونس 1990، ص 19.

[1] – سبينوزا: رسالة في اصلاح العقل، ص 27.

أما النوع الثاني من المعرفة ، فإننا نكتشف فيها أن الطبيعة خاضعة لقوانين كلية، ومن حيث أننا جزء من هذه الطبيعة سنحصل على أفكار مطابقة ونصبح فاعلين بعد أن كنّا منفعلين، ذلك بأننا سوف لا نقبل على أي شيء أو نرفضه إلا بارتباطه بحب البقاء وبالقدر الذي يكفل لنا البقاء.

يرجع "اسبينوزا" هذا الأمر إلى وجود ميل الطبيعة ومن حيث أننا نمثل جزء من الطبيعة ومن القوانين التي تخضع لها، لذلك لا نحفل بما يقال لنا عن أمل في الجنة أو الخوف من النار، وتصبح لدى الانسان الشجاعة فتجعل منه شخصا حراً مستقلاً، ذلك أن الحرية في نظر " اسبينوزا" هي اتباع ما يتفق مع الضرورة الطبيعية من حيث أننا نشكل جزء من الكل، وبذلك تصبح الأشياء الخارجية خيرا أو شراً لا في ذاتها، بل بالنسبة إلى موافقتها أو معارضتها لحب البقاء، مما يفرض اجراء تعديلا على مستوى السلوك، لأنه قد نضطر إلى القول:" إنه عمل صالح بالنسبة للنتائج الحسنة التي أدى إليها، وعمل سيء بالنسبة للدوافع والميول التي صدر عنها. بعبارة أخرى، إننا نميز بين صلاح الأفعال من الناحية الخارجية، وبين صلاحها الداخلي؛ ولا شك في أنّ الفضيلة تمت أولاً وأخيراً إلى الصلاح الداخلي لأفعال الانسان"[1] . علينا إذن حسب "اسبينوزا" أن نمتع أنفسنا في الحياة ولا نفكرفي الموت، بل نتأمل في هذه الحياة ولا يتملكنا الحزن والانفعالات الشديدة، لأن كل شيء إنما يحدث وفقا لقوانين الطبيعة فليس هناك تضاد بين الانسان والطبيعة، فكل ما في الوجودصدر عن طبيعة الله إذ الكون كله عبارة عن وحدة جوهرية حاصلة على علة وجودها في ذاتهاكعلة حالة، وهذا يتحقق في النوع الثالث من المعرفة الذي نشعر خلاله في أنفسنا بأن الله هو علة الحقيقة ومبدأ القوانين الأزلية. وهذا الفرح والغبطة الدائمة التي تصاحب فكرة الله إنما تتمثل في محبة الله. والانسان هو علة هذه المحبة الكاملة التي لا يقابلها محبة من جانب الله، لأن الله كجوهر خال من أي انفعال فحياته أبدية وليست زمانية.

كما أكد "اسبينوزا" أنه من الضروري الأخذ بعناية في عدم الوقوع في الخلط بين الدين واللاهوت أو أي مؤسسة دينية. ويقرر أن المعجزات التي يستند إليها اللاهوتيون في صحة الديانات تتناقض مع النظام الالهي وبالتالي هي مناقضة لنفسها، والعقيدة المسيحية في الفداء لا يمكن العقل أن يقبلها، لأن

[1] – صادق جلال العظم: دراسات في الفلسفة الغربية الحديثة، دار العودة بيروت لبنان، ط3، 1997، ص 231.

يسوع كان انسان كسائر الناس، وكل ما هنالك أن عقله كان يساير نظام الكون، وكانت أرادته متجهة نحو الخير الأزلي"[2] .

4- الأخلاق:

إذا كانت الأ خلاق تعني مجموعة من المبادئ المعيارية التي ينبغي أن يجري السلوك الانساني بمقتضاها، فهي التي ترسم له طريق السلوك الحميد وتحدد بواعثه وأهدافه، وبحكم أن حضور المشكلات الأخلاقية في المساجلات الفلسفية الكبرى، فمن الطبيعي أن يتناول الفيلسوف في نسقه الفكري هذه المسائل الأخلاقية، وبحكم توجه "اسبينوزا" العقلي فإن مذهبه في الأخلاق يحمل مشابه عديدة مع مذهب الرواقية في الأخلاق. فمثله الأعلى للحكيم وتأكيده على ضرورة أن يعرف مكانته في الكون، واعتقاده أن المعرفة تحمي الإنسان من اضطراب النفس تجاه مصائب الحياة وضربات القدر، والحاجة على جعل الحياة تسير بمقتضى العقل، وطلب الفضائل من أجل الفضائل نفسها، فكل هذه الفضائل نجدها في المذهب الأخلاقي الرواقي. كذلك يشتركان في تقرير الجبرية وانكار الحرية الانسانية. والمشكلة بالنسبة إلى كليهما هي في معرفة كيف يمكن قيام أخلاق دون افتراض حرية الانسان؟ إن الأخلاق أمر بواجبات، والمجبر لا يؤمر لأنه مجبور على فعله لا خيار له فيه. وقد شعر "اسبينوزا" بهذه الصعوبة ومن هنا نجده أحياناً – وبتحفظ – يقر بأن الانسان يشعر أحياناً كأنه حر ومسؤول عن فعله لكن جوابه لم يكن مقنعاً. وحين يريد التمييز بين الخير والشر يقتصر الأمر على المعرفة، فما يقوي المعرفة يعدّ خيراً، وما يضعفها – مثل الانفعالات والشهوات يعد شراً.

هذه المسائل الاخلاقية التي تفاعل معها "اسبينوزا" تكشف مدى ذيوع المرجعية العقلية في معظم تصوراته الفكرية حول مدى تأثير البعد الديني في ثقافة عصره الذي خلق مأزقاً كبيرا في أوساط الجماعات اليهودية في فهم النص الديني وفي البحث عن المسلك العقلي في تأويليه وفق سلطة تكون أكثر تناغما مع طموحات السلطة الدينية، لذلك كانت اتسعت الخلافات بشكل لافت في البحث عن مخرج آمن من هذه الصراعات التي تعمقت تداعياتها على مستوى وعي الفرد والمجتمع على حد

---

[2] – عبد الرحمن بدوي: موسوعة الفلسفة، الجزء الأول، ص 144.

سـواء، " لأن الحصـول على مذهب أخلاقي يكون ضـرورة فكرية ومبدأ يتضـح في داخل نفوسـنا، هنالك يبدأ تعميق أخلاقي بعيد المدى لوعي الأفراد وتقدم اخلاقي مستمر للإنسانية" [1] .

" أما ديكارت فلقد تجاوز المذاهب المدرسـية بنقده للمعرفة الحسـية وباعتباره الاله والنفس جوهرين عقليين يدركان بالعقل بصـورة قبلية، إلا أنه قد تعذر عليه، نظراً إلى منطلقه المثالي، الخروج من الذاتية وفهم الوجود، إن الفصل الذي أقامته فلسفة الكوجيطو بين عقلنا البشري والعقل الالهي لم يساعدها على ادراك الوجود، وحكم على العقل البشـري بالركود النهائي في حدود ضـيقة لا تناسـب طموحه الأصـلي. فكل من الفلسـفة المدرسية والفلسـفة الديكارتية قد عجزت عن منح العقل البشـري الدفعة اللازمة كي يتطور بصورة لا نهائية، حسب النظام الضروري الذي ينطلق من المبادئ لبلوغ النتائج"[1] .

وبهذا ينتهي "اسبينوزا إلى نقد الفلسفات السائدة في عصره، اعتقاداً منه أن الفلاسفة حادوا عن ايجاد طريقة فلسـفية سـليمة في عملية اثارة المشـكلات الكبرى التي تثيرها الفلسـفة في مختلف موضـوعاتها، لذلك استفاد من فلسـفة "ديكارت"، إذ منحت له اطلاعاً واسـعاً وعميقاً عن المناهج الفكرية التي تعينه على تناول قصـايا الدين والحرية والمعرفة ....وبالتالي خالف الفلاسـفة في طريقة التفلسف، لأن الفلاسفة في نظره، لم يتقيدوا بالترتيب المناسب في مناقشة القضايا التي تحظى بالأولوية اللازمة، لأن الافتراض العقلي يسـتوجب البداية بالطبيعة الالهية قبل غيرها، لأن هي التي تعطي الإشارات الأولى للعملية الفلسفية التي يخوض فيها العقل لكي ينتقل إلى باقي القضايا الأخرى.

---

[1] – البرت شفيتزر: فسفة الحضارة، ترجمة، عبد الرحمن بدوي، دار الأندلس، بيروت ـ لبنان 1980، ص 135.

[1] - سبينوزا: رسالة في اصلاح العقل، ص 20.